

المعطيات النفسية للتوقيت



«الالتزام:

الالتزام بمعنى الجدية والانتظام في السلوك يكاد يكون غريزة في ضمير الإنسان كما هو غريزة في ضمير هذا الكون المنظم.

إنّ من الطبيعي للإنسان حينما ينظر إلى ما حوله فيرى كلّ شيء ملتزماً، أن ينزع إلى الالتزام.

السماء بأجرامها ملتزمة بحركة منظمة، والمياه بجريانها وتبخرها وعودتها ملتزمة بنظام، والحيوان ملتزم بأنظمته التكوينية والغريزية، بل الذرة الواحدة من الوجود ملتزمة في حركات أجزائها ونواتها بنظام جادة في أداء مهمتها. والإنسان نفسه ملتزم في تكوينه الجسدي بأدق الأنظمة وأكملها.. فلم لا يكون ملتزماً في سلوكه بنظام، جاداً إلى هدف، ملتزماً مع مسيرة الطبيعة السعيدة المنتظمة.

إنّ نفس الإنسان لا تطمئن إلى السلوك الفوضوي العاثر ولا تستقر إلا بالانتظام مع موكب الوجود متحركة فيما خلقت له وهديت إليه..

أما ثورة الجيل الجديد على كلّ التزام وانتظام فهي ليست في عقيدتي خروجاً على (مبدأ) الالتزام. وإنما هي ثورة في البحث عن الالتزام نافع بدل ألوان الالتزام القائمة في العالم.

إنّ السبب الحقيقي في تيار الفوضى والعبث الوجودي والهيبي الذي يجتاح العالم هو شعور هؤلاء (الثوار) بأنّ التزام الناس بشكل الحياة المعاش هو التزام فارغ.. فلماذا يقيد الإنسان نفسه بقوانين؟ ولماذا ينتظم في عمل يومي مضن؟ ولماذا..؟ ولماذا؟ أليس كلّ ذلك من أجل أن يعيش الإنسان سعيداً هائلاً، فلماذا لا يعيش سعيداً هائلاً على الأعشاب وتحت الشمس ومع الجنس زرافات ووحداً؟.. من يقول إنّ شكل الحياة القائم المعقد الباهظ هو أكثر هناءة من شكلها الحر الطليق؟ هذا هو لب منطق هؤلاء (الثوار) سواء استطاعوا أن يعبروا عنه بهذا الوضوح أو عجزوا.

إنّ هؤلاء الخوارج على الالتزامات غير المجدية في نظرهم ما هم إلا باحثين عن (التزام) طبيعي

مبسّطٍ مجدٍ، وليس فرقههم عن غيرهم من الباحثين إلا أنّهم رفضوا اللون الخاطيء من الالتزام وسرحوا في لون من السلوك قبل أن يعثروا على الالتزام الصحيح...

ولا بدّ أن تنتهي هذه الموجات الباحثة إلى التجاوب مع الطبيعة فتتبنى ألواناً من الالتزامات الميسرة وغير الميسرة تبعاً للظروف التي تحيط بها والفلسفات التي تنمو في أوساطها.

مهما يكن من أمر فإنّ الالتزام والانتظام في السلوك هو نداء الفطرة في عمق الإنسان ونداء الحياة من حوله.. ولذلك لبّي التشريع الإسلامي هذا النداء ووضع للإنسان صيغة الالتزام اليومي محددة بفرائض يؤديها أثناء نهاره وأطراف ليله.. الأمر الذي يعطي النفس البشرية استقراراً بانطبائها في مسيرتها انطبائاً يومياً، كما يعطيها انتظاماً مع ما حولها من الوجود انتظاماً واعياً متفتحاً متجاوباً مع هدفها الكبير، بعيداً عن انضباط التقاليد المبهمة المملولة، وعن انضباط (الحضارة) المجهدة المعقّدة.

الاطمئنان:

من أصح ما وصفت به الحضارة القائمة أنّها: حضارة الرعب، فقد أبت هذه الحضارة مع كلّ منجزاتها المادية للناس إلا أن تنقل إلى نفوسهم مخاوف الحضارة اليونانية بأساطير شعبها وهرطقة فلاسفتها وقرية عداء الطبيعة للإنسان.. حتى لقد أصبح القلق النفسي مشكلة عالمية تبعث على الأسى حقاً..

خذ إنساناً من حضارة القرن العشرين (وكذلك القرن الواحد والعشرين) وابحث عن لؤلؤة الاطمئنان في محارته فإنك غير واجدها.. إنك واجد نسخة شبيهة بإنسان حضارة الرومان واليونان الذي تتقاذفه الآلهة المجنونة من كلّ صوب ويأخذ بتلابيبه شبح القدر الأرعن، وأجد إنساناً يعيش العداء مع كلّ شيء فهو في عباب صاخب وفي غلاب دائم.. الناس في إحساسه أعداء ماكرون، والمستقبل في فهمه رعب مجهول لا يكشف عن نفسه ولا يبين، والموت فم فاغر لا يدري متى يطبق، والطبيعة عدو لدود بحرّها وبردها وجميع طواهرها..!

لقد أصبح أمل الإنسان في أن يسكن الكواكب البعيدة أملاً قريباً ولكن أمله في أن تطمئن نفسه بين جنبه لا زال أملاً بعيداً وغير معقول!

والنفس البشرية إن هي فقدت اطمئنانها إلى الوجود فليس إلّا الأعراض المخيفة تنتاب الشخصية البشرية وتهدد كيائها من عمقه كما أصبح الحال في المجتمع الحاضر.. فهل في الحياة ما يحل هذه المشكلة ويمنح هذه النفس القلقة قدراً من الطمأنينة؟

إنّه لا أقدر من الإسلام على إهداء اللؤلؤة المفقودة إلى الأنفس القلقة. يقوم الإسلام أوّلاً بتطمين الناس نظرياً فيقدم لهم مفهومه السعيد الفريد عن الوجود وعن موقعهم المطمئن فيه، وليس هذا مجال استعراض مدى الطمأنينة والموضوعية في مفهوم الإسلام هذا.

ثمّ يضع لهم فريضة الصلاة التي تجعل من الاطمئنان حقيقة يتعاملون معها في سلوكهم بعد أن استوعبوها في عقيدتهم..

ماذا أبلغ في تطمين النفس البشرية من أن تأوي في فترات نهارها إلى ملك الوجود عزّ وجلّ تنفياً رعايته وحنانه وهداية وتستمد منه العون لحاضر أمرها ومقبله.

وللتوقيت الحكيم الذي اختاره سبحانه لفريضة الصلاة ارتباط واضح بدفعات الطمأنينة التي تحتاجها النفس كلّ يوم.. فما أن يرخي الليل أسداله على الأرض حتى يرتفع الأذان وتمتد يد الصلاة لتطمئن الإنسان فتضعه بين يدي ربه وأماله مسلمة إيّاه إلى سكون مقصود..

وينهض الإنسان ليوم جديد فتوافيه الصلاة مبكرة تبارك له آماله وتبشره.. ويستغرق في العمل وملابس الحياة فتعود اليد الرفيقة لتنتشله من حرصه ومخاوفه وتعيد إليه طمأنينته دافعة به إلى

ارتياح من تعب النفس وتعب الجسم.

توفيت حكيم كتبه ا[] على الإنسان كي يجدد لنفسه إيمانها واطمئنانها كلما قطعت مرحلة من النهار، من أجل أن تبقى مفعمة بالهداية والسعادة، سائرة برعاية ربّها وهداة تجني لوجودها خير الحاضر المطمئن وفوز المستقبل المأمول..

(إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عِلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) (النساء / 103). ►

المصدر: كتاب فلسفة الصلاة